(٥)

وكانت المعلومات تقول بكل صراحة

مصركم فى خطر انقذوها!

عاد الشـــاب المرشـــح لدخول الكلية الحربية بعد فاصل من التدريبات البدنية يتســـاقط عرقه ينظر إليه الجد الضابط الكبير المتقاعد ضاحكا:

الشاب يسأل: ايه ياجدو بتضحك على إيه؟!

يقول الجد: مبســـوط منك لأنك بتحب الرياضة وأنت هتشبع منها لما تدخل الحربية.. لكن عايزك على قدر ما بتهتم بعضلاتك..يكون اهتمامك بعقلك يعنى تقرأ على قد ما تقدر.. لأن العسكرية عقيدة عشان كده أنا دلوقت اللى عايز اسألك

أنت تعرف إيه عن جيش بلادك؟

يقول الشاب: أعرف أنه من أعظم جيوش الأرض..يهز الجد رأسه موافقا لكنها إجابة غير كافية..لكن عليه أن يترك الحفيد يذهب إلى الحمام أولا وبعدها يكون الكلام..

قال الجد: مصر دائما موعودة بالغزو وهنا يظهر أبطالها ومعدنهم الشـــجاع..لأن بلادنا بموقعها الاســـتراتيجى كانت وما تزال مطمعا لكل من يريد أن يمتلك زمام المنطقة.. كلها لهذا لعبت السياســـة الأمريكية على مبدأ لن نتركها تغرق..وأيضا لن نســـمح لها بأن تطفو وتعوم حتى تبلغ الشاطئ الآخر.

جـــاءت الجيوش الغازية من كل اتجاه فـــرس وإغريق وبطالمة ورومان وصليبيين وقبلهم تتار وفرنسيس وانجليز وصهاينة وغيرهم..ولمعت بطولات أحمس ورمسيس الثانى وتحتمس الثالث والشـــيخ الإمام الشعراوى رحمه الله له فى ذلك مقولة خالدة تكررها أجهزة الإعلام كثيرا عن مصر التى صدت الخطر الصليبى وانهت سطوة التتار.

يسأل الشاب: ومتى بدأت العسكرية المصرية فى التاريخ الحديث؟

يقول الجد فى القرن التاسع عشر الميلادى وتحديدا فى ١٨٢٠م على يد "محمد على باشا" هنـــا تم الإعلان عن الجيش المصرى وكان قبلها من المرتزقة والمماليك وقام محمد على ببناء أول مدرســـة حربية تقوم بإعداد الجنود والضباط فى أســـوان وأنشـــأ العديد من الترسانات لتمويل الجيش بأحدث المعدات كالبنادق والمدافع والبارود واستعان وقتها بالقائد الفرنسى الشـــهير "سليمان باشـــا لتدريب وتأســـيس الحربية واســـتبعد محمد على تجنيد الأتراك والأرناؤط لما عرفوا به من الخيانة والغدر وعدم حب النظام وحاول تجنيد السودانيين لكن بعـــد ذلك اعتمد فقط على المصريين فهم خير الأجناد كما وصفهم الرســـول الكريم ﷺ قبل فتح مصر بسنوات وقد تم بعد وفاته ﷺ.

وبعد مدرسة أسوان تم افتتاح مدرسة حربية أخرى فى شارع القصر العينى فى عام ١٨٢٥م ثم مدرسة المشاة فى الخانكة ومدرسة الفرسان بالجيزة ومدرسة المدفعية فى طرة ثم مدرسة أركان الحرب فى الخانكة التى تتبع حاليا محافظة القليوبية ثم تأسست المدرسة البحرية بالأسكندرية وبعد سنوات قليلة وبهذه التخصصات أصبح الجيش المصرى هو الأقوى فى الشرق وتحققت له الانتصارات واحدة تلو الأخرى فى الشام والحجاز وتركيا وجزيرة رودس باليونان حتى اتسعت حدود الامبراطورية المصرية وهنا بدأت المؤامرة على الجيش باتفاقية لندن التى حاولت تحديد قوة هذا الجيش الذى ثار فى وجه الخديوى توفيق على يد الثائر الضابط المصرى أحمد عرابى والتحم الشعب مع جيشه فى تلك الثورة وهو المشهد الذى تكرر بعد ذلك فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ثم فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م وفى ٣٠ يونيو عام ٢٠١٣م.

ومع الوصول إلى عام ١٩٣٠م كانت الكلية الحربية قد اتخذت شكلا جديدا هو أقرب إلى الشكل الحالى.

العسكرية لها قانونها وأخلاقياتها وهو ما غاب تماما عن إدراك الرئيس الإخوانى ونظامه..كان يكفيهم لاختيار السيسى أنه متدين وبتاع ربنا وفى حاله وسجله مثل اللبن الحليب..وبالتأكيد سيكون وفيا لمن منحه الترقية وقدمه على سائر القادة..وعندما دارت الصراعات على الحلبة بين الرئيس والقائد..منها ماظهر ومنها ما بطن ظن ساكن القصر أن السيسى الصامت يمكن أن يكون أكثر صمتا وطاعة إذا ما تم تكليفه برئاسة الحكومة بديلا لهشام قنديل رئيس الوزراء المرفوض وصاحب الأداء الضعيف واعتقدوا أنهم بذلك يضربون أكثر من عصفور..يهدأ الشارع الغاضب..ويتم إبعاد السيسى أو بمعنى آخر خلعه من وزارة الدفاع وقيادة الجيش لأن رئاسة الحكومة تكفيه وهو موقع مؤقت لأن تغييره وجوبى بعد الانتخابات البرلمانية التى كانت على الجدول..وبرغم زيادة الغنيمة بأن يحتفظ السيسى برئاسة الحكومة كلها وأيضا وزارة الدفاع..لكن الحسابات كانت مغلوطة وبعيدة عن شخصية الرجل الذى يجمع بين سماحة المسلم ولينه وقوة العسكرى وصلابته..مرتكزا على إيمانه القوى بالله والوطن والنفس..

وكانت القوى والأحزاب السياسية تنظر كذلك إلى السيسى فى حذر خوفا من تكرار ما جرى مع المجلس العسكرى وأخطاء الممارسة السياسية التى وقعت بحسن نية أو بانعدام

الخبرة السياسية فى ظل ظروف بالغة التعقيد والصعوبة جاء هذا بعد تسريبات عن قرب بالإطاحة بالمشير طنطاوى وسامى عنان وإن الاسم الأقرب للمنصب هو السيسى وبدأت العيون تنظر إليه والشكوك أيضا تحيط به بعد أن تسلم مقاليد الجيش..كيف هى تحركاته وزياراته وتصرفاته كيف هى أساليبه فى التهنئة وفى العزاء وبين رجاله..وهو يتقدم الصفوف جريا بالخطوة السريعة ولسان حاله يقول لهم ولغيرهم: من الميدان خرجنا وإلى الميدان نعود..

كل التصرفات تشير إلى أن هذا الرجل العسكرى الوديع هو أيضا رجل الدولة الذى يعرف كيف يتفانى فى ترابها عشقا وغراما وإخلاصا وأبناء الأحياء العريقة مثل الجمالية أكثر من غيرهم ارتباطا بالمكان والناس.

وفى الحفل الذى التقى فيه السيسى بمجموعة كبار من قادة الجيش والفنانيين والإعلاميين والأدباء..أطل شبح القلق على الوجوه: إلى أين يأخذنا هذا التنظيم الحاكم لنفسه وأهدافه وليس للوطن الذى أقسم عدة مرات بأن يكون حارسا لأمنه وسلامته ووحدته محافظا على دستوره وشرف الانتساب إلى ترابه المقدس..

فى هذا الحفل أدرك القائد ما تنطق به الملامح والقلوب فابتسم للحاضرين فى ثقه وهو يقول:

لاتخافوا على مصر..مصر هى أم الدنيا وستظل أم الدنيا

لكن كيف لمصر أن تتفق والانقسام تحول إلى سكين بغيض فى قلب الوطن الواحد بعد الإعلان الدستورى الطائش المتهور الذى أصدره مرسى أراد به الاستحواذ فإذا به يمسك الهواء.

أهل الاستراتيجية يؤكدون بأن الخروج بمصر إلى بر الأمان مرهون بإرادة سياسية داعمة للموقف العسكرى الذى يؤمّن حدود البلاد ويحافظ على أرضها بجانب دعم قوى وحقيقى من المواطنيين لأهداف الجيش لكن كيف والإدارة السياسية للبلاد لايشغلها سوى تأكيد مشروع جماعتها حتى إن المسافة قد سقطت أوتلاشت بين مقر الإخوان فى منطقة المقطم وبين قصر الاتحادية الذى يسكنه الرئيس الإخوانى.

القوى السياسية تتصارع..والأوضاع مترهلة وبخبرة القائد الذى تدرج فى المناصب المختلفة للقوات المسلحة حاول استيعاب ما يحدث لكى تعبر السفينة إلى بر الوطن..

لكـــن القبطان الذى ســـاقته الأقدار والاتفاقات إلى مقعد القيادة يـــكاد يجنح بها إلى حيث مصيرها الغامض.

هنـــا تموج خبرات القائد بما درس فى الكلية الحربية ثم كلية القادة والأركان ثم نفس التخصص فى بريطانيا ثم زمالة كلية الحرب العليا من أكاديمية ناصر و زمالة كلية الحرب العليا من أمريكا..خبرته مع المشـــاة وقيادة المنطقة الشـــمالية ثم رئاســـة المخابرات..حيث تتجمـــع المعلومات إلى جانب بعضها البعض وهنا لابـــد من النظر إلى الصورة بعين فاحصة تســـتطيع أن تحول المعلومة إلى فعل ثم التخطيط له وحســـاب المكاسب والخسائر ثم يكون القرار بعد التوكل على الله من قبل ومن بعد وفى كل وقت وحين.

وبعد أن تصدر السيسى المشهد السياسى فى ٣٠ يونيه عاد إلى مكانه الحبيب كجندى حـــارس لخارطـــة طريق الوطن وبدأت الدوائر العربية والغربية تفتش أكثر فى تاريخ الرجل وفـــى ذلك قالت وكالة CIA أحد أذرع المخابرات الأمريكية إن الفترة التى قضاها الفريق طالبـــا بكلية الحرب العليا الأمريكية كان جادا وهادئا ويؤم المصلين بالمســـجد القريب وإن كتاباته كانت تعكس وعيه بأن طريق الديمقراطية فى الشـــرق الأوســـط مليء بالمصاعب لكن بلوغ النجاح فيه ليس مستحيلا.

ومن يريد المزيد عليه الرجوع إلى كتاب عام ٢٠٠٦م الذى يصدر سنويا عن كلية الحرب موثقا بالصور ومترجما إلى الإيطالية والفرنســـية والألمانية والإســـبانية وفيه صورة السيســـى وقت دراسته.

ومن هنا كانت الإدارة الأمريكية تريد مســـاندة مشروعها مع الإخوان لكنها تدرك جيدا أن ما جرى ليس انقلابا وأن السيسى بشخصه وقدراته يستطيع أن يفعل الكثير!

□□□